BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

مفهوم الـــ"نحن" في مقابل مفهوم الآخر

صفحة من هموم الوطن

صلاح فضل:

كنت أخشى أن تكون ندوتنا هذه الليلة في منتدى الحوار حلقة الوقفة التي تسبق العيد لأن مكتبة الإسكندرية تستعد في اليومين القادمين لاستقبال حدث كبير يستقطب اهتمام أكبر عدد من عشاق الفكر والثقافة في الإسكندرية وغيرها من عواصم مصر وهو استضافة الدكتور مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق ليتحدث عن تجربة التنمية في ماليزيا، لكن، من الواضح أن منتدى الحوار قد أسس تقاليده واكتسب عاداته وظفر بثقتكم الجميلة الطيبة التي نعتز بها ونحرص عليها ونتمنى دائما تنميتها ونفخ روح المودة والقرب والمحبة فيها، لأن شرط الحوار هو أن ينبني على رغبة التفاهم والتواصل وربما رغبة مطارحة الود والألفة والإفادة من الغير والوصول لدرجة عالية من التفاعل معه.

وندوتنا الليلة تدور في إطار دافئ جميل يعبق بروح تستأثر باهتمامكم وتظفر دائما بحماسكم، روح الإحساس بهموم الوطن والتجاوب معها والتأمل فيها والإدراك العميق بأبعادها المختلفة، الدكتورة هدى زكريا متخصصة في فرع جديد ودقيق من فروع علم الاجتماع هو علم الاجتماع السياسي، الذي لا يتصل بالأشكال التقليدية للأنماط الاجتماعية المختلفة، وإنما بالتحولات الحية التي تؤثر في بنية المجتمع، وترتبط بطريقة تشكل ضميره وحساسيته ومتغيراته. أعطتني قائمة بمؤلفاها، لكنني سأختار منها مؤلفا واحدا هو الأخير لطرافته ولأنه يعطي لنا فكرة عن هذا المنـــزع الدقيق الحساس للارتباط بنبض المجتمع والاستماع إليه وقياس درجة حرارته العائلية والعاطفية والإنسانية. كان من آخر البحوث التي أجرها بحث بعنوان طريف هو:"إدارة العائلة بالريموت كنترول" أو لنقل "عن بعد"، وقد جمعت فيه مجموعة ضخمة من شرائط الكاسيت التي كان يبعث بها العاملون المصريون المغتربون العاملون في الأقطار العربية لا لكي يهدوا سلاماهم وتحياهم إلى أهليهم وذويهم وإنما لكي يشرحوا لهم ما ينبغي عليهم أن يفعلوه في حياهم العائلية أثناء غياهم! تصوروا معي درجة أهمية التحليل العلمي لوضع الأسرة المصرية والمجتمع المصري بأكمله عند تمزقه واضطرار عائله إلى أن يغترب عنه واضطراره إلى أن يتحمل المسئولية أو يشترك في تحملها

مع بقية أفراد عائلته المقيمين، كيف يمكن لتحليل هذه المادة أن تنفذ إلى جوهر المشكلات التي أصابت أسرتنا المصرية وتكويننا العائلي وشخصيتنا وشخصية أولادنا وتربيتهم وأوضاعهم ومستوياقم الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية إصابات بليغة ليست كلها إيجابية كما يمكن لكم أن تتمثلوا مثل هذه المواقف.

إذن، فنحن اليوم مع الأستاذة المحاضرة وهي تملك هذا الترمومتر الحساس لقياس البيئة المصرية عن قرب ومعرفة تغيراها وتحولاها، وهي تطرح قضية ذات أهمية خاصة، قضية الذات الجماعية أو الـــ"نحن" في ظل مفهوم الآخر، وهذه القضية ليست مجردة وليست نظرية وليست بعيدة عن مشكلاتنا التي نحياها صباح مساء، بل هي في صلبها، عندما نفتح مثلا بعض القنوات الفضائية ونرى ما يجلد أحاسيسنا ويؤرقنا ولأننا تعودنا عليها لم يعد يعذبنا كل يوم كما كان يفعل في البداية، ونتساءل ماذا يفعل الآخر بنا؟ وماذا يريد منا؟ فتتولد لدينا مشاعر مركبة من العجز والإحساس بالكرامة الممتهنة، والتساؤل حول ماذا نستطيع أن نفعل لكي نوقف حمامات الدم في فلسطين أو لكي نفهم ماذا يحدث في العراق أو لكي ندرك ماذا يريد هذا الآخر؟ هل الآخر عدو مطلق لنا أم ماذا على وجه التحديد؟

نعرف أن هذه المشكلة تُدرس من جوانب متعددة، الفلاسفة يدرسونها وعلماء الحضارة والثقافة والأنثروبولوجيا يحللونها، ونعرف أنها ذات أهمية خطيرة فيما يمكن أن يحدث لنا وفيما يمكن أن يجسد مستقبلنا، ونعرف أكثر من ذلك أننا لم نكتشف ذاتنا القومية و لم نعرف مقوماتنا حقيقة، لم نتيقظ من غفوتنا التاريخية إلا على صوت هذا الاحتكاك العنيف بالآخر احتكاكا أخذ تجليات عديدة ومراحل مختلفة منذ رفاعة الطهطاوي وحتى اليوم، بعضه احتكاك ثقافي ومعرفي كان بالغ الخصوبة والأهمية وكان ذا تأثير حضاري جوهري، وبعضه الآخر كان يمتزج فيه العشق الشديد بالكره الأشد عندما كان المستعمر يأتي ليسلب منا أقواتنا وأرزاقنا ليستعبدنا مدعيا أنه يعمر أرضنا ويحضر مدننا ويبني لنا حياتنا الجديدة، وعندما نجد أننا نكرهه ونريد أن نتعلم منه، نمقته ولابد أن نفيد من ثقافته وحضارته ويمتزج – كما لا يحدث في قضية أخرى – في نفوسنا كثير من المشاعر المتضاربة المتناقضة.

ما هو موقف جماعتنا التي يلخصها الضمير "نحن" من هذا الآخر على المستويات المختلفة المستوى السياسي والمستوى الاجتماعي والمستوى الحضاري والمستوى الفكري؟ هذا ما سوف تحدثنا فيه الدكتورة هدى زكريا أستاذ علم الاجتماع السياسي بآداب الزقازيق.

هدى زكريا:

يلخص المثل الشعبي المصري القائل:" من أحبنا أحببناه وصار متاعنا متاعه، ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه" بعمق وبساطة موقف المجتمع المصري من "الآخر"، هو موقف أساسه الحب والود بين (الـــ"نحن" والآخر)، فإذا كان الآخر يحمل لنا قبولا حملنا له الحب وتركناه يشاركنا حياتنا، وإذا جاء عدوا كارها، أو مهاجما مغتصبا كرهناه دون عنف، فقط نحاول تجنبه والابتعاد عنه.

من هذه النظرة، تظهر لنا رحابة الـــ"نحن" المصرية القوية القادرة على صياغة علاقتها بالآخر دون تعصب أو تحيز أو عدوان، لكنها قادرة على الاحتكاك بالآخرين من خلال عناصر ثقافية قوية يستحيل على الآخر المعادي مهما كانت قوته العسكرية أو المادية أن يستوعبها أو يذيبها أو يتغلغل فيها مهما كانت قدرته على التفكيك أو القهر.

فلم تكن الجماعة المصرية منذ فجر التاريخ تطمع فقط في البقاء والاستمرار شأنه شأن بقية الجماعات الإنسانية، وإنما صار الخلود هو الهدف **الأسمى** الذي أرسى دعائمه النهر الخالد وما تحيط به من جنة خضراء، فترسخ في الوعي الجمعي للمصريين من الزمن القديم، عمق المسئولية الوطنية عن إدارة النهر العظيم، وزراعة وديانه ورعاياتها، ولم يكن من الممكن أن تصبح مصر هبة النيل ما لم يسيطر المصريون على النيل ليهبوه بدورهم أعظم حضارات الأرض قاطبة، لتصبح مصر هبة المصريين.

ولما كان بناء الحضارة يستلزم استقرارا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، فقد أصبح المصريون مسئولين ليس فقط عن صنع الحضارة وإنما أيضا عن الدفاع عنها وحمايتها من أطماع "الآخرين" من الغزاة المغتصبين الذي قذفت بهم أطماعهم في جنة الوادي الخصيب إلى حدودنا المترامية الأطراف والمفتوحة من البوابة الشرقية لسيناء أو الصحراء الغربية عند حدود ليبيا أو الجنوب عند النوبة، ناهيك عن البحر المتوسط الذي قذف إلى شواطئنا الشمالية بأساطيل الطامعين والغزاة.

وقد استطاعت الجماعة المصرية أن تطور مفهومها للـــ"نحن" بعد أن كشف لها موقعها الجغرافي العبقري وأحداث التاريخ المتلاحقة، أن مصر تعيش أزهى أوقاتها عندما تزدهر معالم نهضتها، ويصير "الكل في واحد" حيث تتجه البنية الاجتماعية المصرية نحو التماسك والمركزية فتصون المجتمع من عوامل الانهيار والتفتت التي اعتادت أن تهدد البناء الاجتماعي المصري من داخلها بفعل تضخم الجهاز البيروقراطي، وصراعات أمراء الأقاليم ونزوعهم نحو الاستقلال بما يهدد التماسك الاجتماعي بالتفتت والثقافة بالتفكك والتحلل ونظام الري بالانهيار والخراب الاقتصادي...إلخ من اجتماع الظروف البغيضة التي كانت المصائب لا تأتي فيها فرادى إذ يصبح من السهل على المتربصين بلحظة الضعف من "الآخرين" أن يجدوا الطريق ممهدا لضرب الحضارة المصرية، ومن يطالع تاريخ الغزوات الشهيرة كالهكسوس والآشوريين، والفرس والإغريق والمقدونيين والرومان مرورا بالمماليك والعثمانيين وانتهاء بالاحتلال الإنجليزي، سوف يلاحظ أن الغزو لا ينجح إلا في حالة التفكك والانهيار للبناء السياسي المصري وما يحيط به من نظام اجتماعي، وهي تلك الفترات التي سميت بفترات (فك المركزية).

كيف طور الوعي الاجتماعي- السياسي مفهوم الـــ"نحن"؟ كانت الحكومة المصرية القديمة التي سميت "بحكومة المهرة والفنانين" نموذجا فريدا للحكم والإدارة، تكونت عناصره الأساسية من مهندسي الري الذي يدير حركة النهر، والطبيب الذي أبدع فنون التحنيط والجراحة، بما يعجز عن تحقيقه أطباء العصور الحديثة، والفنان الذي سجل معالم الحياة على جدران المعابد والقبور، والمعماري الذي شيد الأهرامات والقصور.

لكن المصريين لم يصلوا إلى هذه المرحلة المتقدمة من الاستقرار والنهضة إلا بعد أن تطور لديهم الوعي الجمعي البنائي، و لم يكن مفهوم الـــ"نحن" قد صار ناضجا لديهم في مراحل ما قبل الاستقرار في مجتمع زراعي عالي التنظيم، حيث كانت المشاحنات الدموية بين الفلاحين تقوم نتيجة الصراع على الكيفية التي يتم بها توزيع مياه النهر على أراضيهم الواقعة على ضفافه، وذلك لأن كل من كان مقيما في أعلى النهر كان بإمكانه الإسراف في استخدام المياه وحبسها عمن يقيم في أسفل النهر، وكذلك كل من كان موقعه عند بداية الترع كان يستطيع أن يختص نفسه بنصيب موفور من المياه، وأن يحجبها عمن تقع أرضه عند نهايات الترع، فكان مفهوم "الأنا" واضح في صراع الأماكن وتفتت السلطات وتعدد الملكيات، حيث عانى المجتمع المصري ما قبل التوحيد من التشرذم والتمزق، حتى صارت الوحدة الاجتماعية والسياسية مطلبا أساسيا واحتياجا بنائيا برز بوضوح عندما قام الملك مينا بتوحيد الوجهين لأول مرة تحت سلطة موحدة متماسكة ذات درجة عالية من التنظيم، وحكومة مركزية قوية قادرة على السيطرة على النهر بمهندسيها العظام الذي أقاموا القناطر والسدود والخزانات والجسور وهي مشروعات هائلة لم تكن لتقوم أو تستمر إلا من خلال قوة مركزية صار بها المتفرقون كيانا واحدا.

فصارت الـــ"نحن" لا تعرف التعدد أو الانقسام، وهنا لم يكن غريبا أن يصبح توحيد الآلهة واحدا من آليات الحفاظ على التماسك البنائي، وذلك عندما كشفت مركزية البناء الاجتماعي عن تلك القداسة التي اتجهت إليها قلوب المصريين، حيث هجر الجميع التعددية الدينية التي تمثلت في وجود إله لكل إقليم ورمز خاص به إلى التوحد الديني الذي حفظ الكيان الاجتماعي والثقافي من الانفراط والتوزع.

وهنا لابد من الإشارة إلى مكانة الدين في قلوب المصريين التي نفترض ابتداء أنها تختلف تماما عنها في قلوب الشعوب الأخرى ما قبل العصور الوسيطة وأثناءها، فبقدر ما كان الدين يمثل أداة السيطرة للملوك والحكام في أوروبا الإقطاعية، فإنه في مصر كان دافعا نحو الوعي الشديد بالذات الوطنية المقدسة التي تفتديها الأرواح الفردية لتضمن الواحد الخالد القهار.

وإذا كانت الخرائط الدينية قد غيرت ملامح الخرائط السياسية لدول العصور الوسطى والقديمة فإن مصر تميزت بأنها المجتمع الذي يأبى التمزق على الخرائط الدينية، بل إنه قد استطاع أن يجذب الأديان السماوية إلى خريطته الخاصة المتفردة بطبيعتها.

ولعل هذا هو السر في المقولة الشهيرة لجمال حمدان: "صنعت مصر مسيحيتها الخاصة، ثم مصرت الإسلام عند الفتح الإسلامي" ، فلا شك أن مصر المتدينة من قبل الأديان كانت تستلهم شعلة الإيمان البازغة من كل دين سماوي ليقوم الضمير الجمعي المصري بتقديم صياغته الخاصة فتزداد الثقافة الدينية المصرية قوة تدعم تماسكها البنائي بدلا من أن تمزقها وتفرقها كما حدث في صراع المذاهب الدينية في أوروبا وآسيا. لذا نلاحظ أن المسيحية قد وجدت في مصر الحاضنة للدين ما جعل مصر تتخذ من المسيحية رمزا وتعبيرا عن قومية مصرية متطورة سجلها عصر الشهداء الذين جرت دماؤهم على أرض مصر لتدق أول مسامير في نعش الإمبراطورية الرومانية، ولقد

استطاعت مصر أن تطور نظام الرهبنة ليصبح من أهم أسلحة المقاومة الوطنية بالإضافة لمهمتها الدينية الأصيلة، فصارت الأديرة المصرية ملجأ للوطنيين.

وعندما ساهم الفتح الإسلامي في تخليص مصر المسيحية من عسف الأباطرة الرومان، صارت راية الإسلام رمزا للقومية المصرية في مواجهة التتار ودحرهم بعد أن حطموا حضارات عظيمة في غلٍّ لم يسبق له مثيل، وإلا فلماذا انتظم مسيحيو مصر في جيش صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس من الفرنجة الذي كانوا يدينون بالمسيحية، وكان ينبغي وفقا لنظرة التعصب الضيقة أن ينحاز كل فريق لبني دينه وأن يرى الآخر الذي يدين بديانة مخالفة هو العدو، لكن الوعي الوطني والثقافة المشتركة التي تجمع المسلمين والمسيحيين الكل في واحد وطني هي التي صاغت هذا الموقف الرائع للمصريين الذين ناضلوا من أجل بقاء الوطن الواحد الذي يدينون له بالانتماء والحب على اختلاف دياناتهم.

وعندما حدد مكرم عبيد الزعيم الوطني في العشرينيات هويته قائلا: "أنا مسيحي الديانة .. مسلم الثقافة"، أكد أن الثقافة المصرية القومية بعناصرها الأصيلة قادرة على استيعاب الكل في واحد. أما الزعيم ويصا واصف الذي ناضل كتفا بكتف مع سعد زغلول وجمع الأموال التي أقام بفضلها الفنان محمود مختار تمثال نهضة مصر الخالد، فقد حظيَ بشعبية بين المسلمين والمسيحيين على السواء، وحين توفاه الله حظت جنازته التاريخية بجموع الشعب التي كانت تهتف من قلوب ملهوفة على تحرير الوطن وهي تودع بطلها القومي "إشكِ الظلم لسعد يا ويصا"، والمقصود هو سعد زغلول الذي توفي عام 1927 فسبق ويصا واصف بأربع سنوات إلى رحاب الله، فهل يصدر مثل هذا الهتاف إلا من ثقافة واحدة لا تتخيل أي انفصال أو تمايز بين زعيم مسلم هو سعد زغلول وآخر مسيحي هو ويصا واصف.

إن تحليل مضمون هذا الهتاف يكشف لنا بوضوح أن الجماهير المسلمة التي هتفت كانت مؤمنة في أعماقها أن الزعيمين قد ماتا في سبيل الوطن وكلاهما ذاهب إلى الجنة التي ادخرها الله للشهداء والقديسين، فهل كان من الممكن أن تتصور الجموع المسلمة في الجنازة الشهيرة أن يذهب سعد زغلول إلى الجنة لكونه مسلما ويذهب ويصا واصف إلى النار لكونه مسيحيا أو العكس؟ لذا فقد انتظم المصريون في الجوامع والكنائس بروح متسامحة متسامية تقبل التعدد وترفض الانفصام الثقافي.

وعلى الجانب الآخر حارب المصريون المغتصب العثماني سليم الأول الذي سلب مصر أعظم صناعها وفنانيها، بنفيهم إلى الآستانة ليقيموا النهضة الصناعية في تركيا، واعتبروه الآخر البغيض رغم تدينه بالإسلام. لأنه كان يهدد ثروة مصر ويسلبها حريتها، بينما يحيطون بالضابط الشاب محمد علي بزعامة عمر مكرم عام 1805 لأنه جاء بحلم النهضة والإخلاص لمصر الذي جمع بين الزعيم المصري والضابط الألباني الذي صنع نهضة مصر الحديثة، وانطلق تحت زعامته جيش من رجال مصر إلى الآستانة ليهددوا عاصمة الخلافة العثمانية التي كانت مصر إحدى ولاياتها.

والسؤال الذي أطرحه هنا: من منا سيفاجأ عندما يعرف أن الأناشيد الصوفية التي يرددها المسلمون تحتوي أبياتا رائعة تشيد بالديانة المسيحية ورجالها، وعلى سبيل المثال لا الحصر نقدم واحدة من أناشيد ابن الفارض وهي أناشيد ترددها طرق الحامدية الشاذلية في مولد سيدنا الحسين:

هنيئا لأهل الدير .... في حضرة القدسي

بشمس جلت أنوارها .... ظلمة الرمس

تجلت عن الأشباه............ وهي فريدة

وليست بشكل في الفروع وفي الجنس

ومن منا لا يعرف أن المصريين يفسرون أحلامهم في إطار ثقافة شديدة الرقي، تجعل الحب هو الأساس الذي تجتمع حوله عناصر الأمة، مثال ذلك:

عندما يقص المسلم رؤياه على ذويه قائلا إنه قد رأى في منامه نصرانيا كانوا يقولون له على الفور: خير ... خير النصراني في حلم المسلم نصرة كبيرة والقسس والكنائس والأديرة في حلم المسلم تمثل رموز الفتح العظيم والمكانة العالية التي يحظى بها الحالم ومن يقوم بزيارة سريعة للقديسة تريز بحي شبرا في مصر سوف يلاحظ أن معظم النذور والهدايا القيمة والأيقونات قد قدمها مسلمون يؤمنون بأن القديسة "تريز" تساندهم وتؤازرهم، ومن أشهرهم العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ رحمه الله.

ألم يكن الأزهر وهو أعلى المؤسسات الإسلامية يمارس دوره الوطني عندما أنشأ "الرواق القبطي" الذي يقوم بالتدريس فيه أكبر الأساتذة والشيوخ وفيهم الشيخ محمد عبده ورفاعة رافع الطهطاوي. إذن، فمصر لم تكن أبدا طوائف تجمعت لتصبح دولة، وإنما كانت دائما مجتمعا واحدا، ووطنا واحدا استوعب الأديان بحكم ترتيبها التاريخي، وهو الذي استقبل العائلة المقدسة عندما لاذت بمصر من أذى الرومان، ثم استقبل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم عندما لجأوا إلى مصر هربا من بطش يزيد بن معاوية.

مما سبق نلاحظ أن المجتمع المصري قد استطاع أن يمارس دوره الفاعل في صياغة ثقافة واحدة تستوعب التعددية الدينية بحيث صارت تلك التعددية سببا من أسباب قوة البناء الاجتماعي وغناه بعناصر الثقافة المتعددة بدلا من أن تكون سببا من أسباب تحلله وتفككه.

وعن الثقافة المصرية بين الفاعل الثقافي والمفعول به القديم، نجد أن المواطن المصري كان فاعلا أساسيا في صياغة عناصر ثقافته الرحبة القوية، واستطاعت هذه الثقافة أن تمارس انتشارا واضحا في العالم العربي وإفريقيا وآسيا، وبلغت أعلى درجاتها في ظل مشروعات النهضة في القرن 19 و20، فصارت منارة للتنوير استضاءت بها المنطقة العربية إلى أن أحكمت الأزمة الاقتصادية سيطرتها في الفترة الأخيرة لتدفع بأعداد كبيرة من المصريين للهجرة المؤقتة

إلى دول الخليج التي مثل اكتشاف البترول فيها طفرة تحولت خلالها مناطق بدوية فقيرة إلى مناطق لجذب العمالة مثلت مصر لها منطقة تصدير للثروة البشرية المهاجرة من جميع الفئات الاجتماعية.

ورغم افتقاد دول الخليج إلى الخبرات المصرية العالمية في جميع التخصصات إلا أن هيمنة أصحاب الفكر الوهابي على الثقافة السائدة في منطقة الخليج عرضت الأسر المصرية المهاجرة لتيارات فكرية ذات نزعة سلفية ورؤية ظلامية، وقد تسربت تلك التيارات إلى المجتمع المصري عبر المهاجرين العائدين الذين لم ينتبهوا إلى أن رحلة جمع المال سمحت للثقافة البدوية بالتسلل إلى أذهان من تربوا في إطار ثقافي متحضر أساسه الزراعة والصناعة، فنجم عن تأثر المصري المهاجر بهذه الثقافة البدوية تحول واضح في منظومة القيم الاجتماعية، وفي النسق الثقافي السائد لدى جموع العائدين، فصار الفاعل الثقافي الجديد المتمكن من عقول البسطاء ومتوسطي الثقافة من المهاجرين المصريين يتحرك بهم في اتجاه هدام، أخذوا يصنفون هويتهم من خلاله بصفتهم مسلمين ينتمون إلى الدين الإسلامي ومن يدينون به، فإذا ما عادوا إلى وطنهم الكبير مصر، سيطر الاغتراب الثقافي على سلوكهم، واستخدموا (نحن) جديدة تقتصر في معناها الضيق على من يطيلون اللحية ويرتدون الجلباب الأبيض من الرجال والمختفيات من النساء خلف الخمار والنقاب، وعادت ألفاظ وتعبيرات قديمة تخرج من الأضابير مثل "أهل الذمة" للحديث عن المصري المسيحي، ورأينا بعين الحسرة سيف الانقسام الباتر يهبط ليشق القلب الواحد والروح الواحدة والثقافة الواحدة، مستخدما آليات تفكيك البنية، عامدا لفصل كرات الدم الحمراء والبيضاء في دماء المصريين، كعنصرين منفصلين وليس كدم واحد يأبى إلا أن يرتب مكوناته حسب أفضليات دينية أو عنصرية.

وقد امتد هذا الموقف الخطير إلى ذاكرة الأمة المصرية وتاريخها الذي صار نهبا للعبث والتخريب والتجزيء، فاستبعد المنهج الدراسي في المدارس فترات حيوية وهامة من تاريخ الأمة، ورغم أن مصر التي أعلت شأن الإسلام بإنشائها الجامع الأزهر ليصبح قلعة العلم الديني والدنيوي الحصينة ومنارة صحيح الدين ، إلا أن التسلل التدريجي للمساجد والزوايا في ريف مصر وحضرها قد أحكم رؤية ظلامية على بعض الفتيان والفتيات الذين اندفع بعضهم تحت تأثير اليأس والتهميش إلى خارج منطقة الفعل الاجتماعي والثقافي، فسقط في قبضة قيادات إرهابية قوية ومنظمة قادرة على أن تلعب في حياتهم الدور البديل للأسرة والدولة والمجتمع بأسره فتقودهم إلى عنف غير مسبوق قاموا خلاله بضرب المجتمع الذي يظلهم بظله في عمق أمانه ومصالحه الاقتصادية كالسياحة مثلا.

ومن المفجع أن هؤلاء المراقين صاروا يتعاملون مع أسرهم وأقاربهم وأصدقائهم باعتبارهم (الآخر الكافر) الذي يجب معاداته والبطش به، تحت دعوى الجهاد وإحياء الدعوة الإسلامية في نفس الوقت، وكرد فعل طبيعي في الاتجاه المضاد ظهرت بين صفوف مسيحيي مصر بعض الاتجاهات السلبية نحو العزلة والانكماش وضعف الفاعلية الاجتماعية والسعي إلى الهجرة للانخراط في مجتمعات غربية ثقافيا مثل كندا واستراليا وأمريكا بحثا عن وطن آخر في المهجر، بعد أن أصبح المستقبل داخل الوطن الأم غامضا لا يوحي بالتفاؤل.

ساهم في ذلك كله نزعة تآمرية لدى من يتربصون بوطننا أفادت من نظرية الموزاييكا السياسية، وذلك برسم صورة ممزقة لمجتمعاتنا العربية والإفريقية وعلى قمتها المجتمع المصري الذي صار مستهدفا لعدم تماسكه البنائي، وضميره الجمعي، حيث يتم تصعيد الخلافات المذهبية ليس بين المسلمين والمسيحيين فقط وإنما بين المسلمين الذين يختلفون ما بين شيعة وسُنة، أما المسيحيون فيتم السعي إلى تفتيتهم إلى كاثوليك وأرمن وأرثوذكس وسريان وإنجيليين، وتحرص هذه النظرية على التعامل مع الجماعات المصرية والعربية في إطار ما تعيش في ظله من ثقافات فرعية، كالريف والبدو والحضر، أو في إطار طبقي كأغنياء وفقراء، إلى أن ينفرط عقد مجتمعاتنا إلى (أنا وآخر) على أرضيات مختلفة.

ومن المؤلم أن تتضافر اتجاهات التفكيك من الخارج مع توجهات التقسيم من الداخل لتفصل بين عنصري الإنسانية الرجال والنساء بعد أن أثرت لغة الخطاب الديني الجديد على نظرة المجتمع لنسائه وعلى نظرة المرأة لنفسها، فأصبحت نساء الغالبية "آخر" غير مقبول إلا بشروط أهمها اختزال المرأة إلى مجرد متعة مشروعة للرجل في مجاله الجغرافي، وذلك رغم أن المرأة المصرية التي بدأت القرن بالجهاد الأكبر من أجل الوطن، كان من الطبيعي، تنجح في الجهاد الأصغر في التعليم والعمل، لكننا نكتشف أن المهمة النسائية التي تمت بنجاح قد انتهت، وأن المجتمع الذي رحب في ثورة 1919 بتضحية نسائه وبطولاتهن قد أصبح يضيق بالنساء اللاتي أدين الواجب نحو الوطن بعد أن روج السلفيون فكريا والانفتاحيون عمليا لدعوة زائفة تفسر مشكلة انتشار البطالة بأنها نتيجة مزاحمة المرأة للرجل في مجال العمل، ولا تزال تحضرنا مأساة الأب الذي أرسل لبريد الأهرام شاكيا ومندهشا من إصرار ابنته التي أنفق عليها آخر مليم لديه حتى تخرجت من قسم الهندسة الطبية بكلية الهندسة على البقاء في المترل في انتظار العريس، لتقتل بذلك آخر أمل لدى أبيها في أن تحتل موقعها في العمل وفي المسئولية الإنسانية.

ولم يعد غريبا أن يستخدم بعض خطباء المساجد في حديثهم عن المرأة تعبيرات "الشيطانات" و"صاحبات الكيد العظيم" والتي يخشى إبليس نفسه من خبثها ومكرها. وقد لاحظت أن مفردات الخطاب الديني تكيل للمرأة الضربات التي تغلغلت في الثقافة الرجالية السائدة في مجتمعنا، فصار المجتمع مستفزا من نسائه بصورة لم تحدث من قبل، وقد بدا ذلك واضحا عند محاولة تطبيق "الخلع" بنقله من الشريعة الغراء إلى ساحة القانون الوضعي، فإذا بمناقشات أعضاء مجلس الشعب للقانون، وكانوا جميعا رجال باستثناء السيدة فايدة كامل، فإذا بهذه المناقشات تكشف كيف رسم أعضاء المجلس الموقر أسوأ الملامح للمرأة المصرية، فاستخدموا تعبيرات الخائنة والغادرة والسهلة الإغواء والاستهواء والمنافقة لوصف الزوجة التي تطلب تطبيق الخلع على زوجها، وأصروا على سلبها حق الخلع دون أن يبدي الزوج رضاه عن إنهاء الزواج رغم أن هذا غير جائز شرعا إذ لا يستوجب الخلع في الشريعة رضاء الزوج وإلا صار الخلع طلاقا. وعند مناقشتهم للزواج العرفي أصر الأعضاء على التنكيل بالفتيات اللاتي يتورطن في الزواج العرفي بالسماح للأزواج بممارسة "إعضال" الزوجات أي قهرها وإذلالها، واتخذ جوارهم طابعا عقابيا للفتيات أكثر

من محاولة تنظيم الزواج نفسه. ولم نلاحظ في المناقشات أن هناك أي اتجاه لعقاب الشباب الذي يغري الفتاة بإجراء الزواج العرفي أو تحميله أي مسئوليات أو اتخاذ أي إجراء قانوني يردعه.

فهل يمثل هؤلاء الأعضاء المجتمع المصري تمثيلا حقيقيا يعطون فيه للمواطن مهما اختلفت جنسه أو دينه حق المواطنة الحقيقي ... هذا سؤال لابد من طرحه.

إن المجتمعات الفاعلة القوية لا تترك نفسها أبدا للظروف تدفع بها في هذا الاتجاه أو ذاك، فالإنسان وحده هو الكائن الذي يحمل على كتفيه تاريخه، وهو الذي يسترجع حكمة الأمس لكي يتأمل حركة اليوم، ليعرف موضع القدم الذي سيتحرك به في خطوته القادمة إلى الغد.

صلاح فضل:

كما ترون، وبصوت هادئ جدا أشعلت الدكتورة هدى زكريا عددا من الحرائق، فقد اعتمدت على جملة من الحقائق التي سعدت حقيقة بتأكيدها، الحقيقة الأولى والتي يؤكدها كل الباحثين المتعمقين في التاريخ الحضاري هي أن مصر أم الديانات قبل السماوية، وأسهمت إلى حد كبير جدا في حفظ وتأصيل الديانات السماوية ذاتها، ولعلني أذكر أن فيلسوفنا العظيم الدكتور زكي نجيب محمود كان قد بدأ حياته عقلانيا وضعيا يكاد يضاد الحس الديني حتى أنه كانت له تعبيرات جارحة لتلاميذه نحن في حل من ذكرها حتى لا أثيركم ضده، ثم كان في كتاباته الأخيرة يؤكد أن النسب الحقيقي للشخصية المصرية نسب ديني، وقد ناقشته في ذلك، قلت له هل قربتك الشيخوخة من التدين والإسلام؟ قال لي أنا لم أقل الإسلام قلت الدين، بمعنى البعد الروحي للشخصية المصرية وهذا ما تؤكده كل التأملات الفلسفية الحقيقية. كذلك، كلمة الدكتور جمال حمدان التي أوردتها الدكتورة هدى زكريا في محاضرتها من أن مصر طبعت المسيحية بطابعها ومصَّرت الإسلام، فهذه حقيقة نعرفها تفصيلا، وكيف أن الفكر الإسلامي أخذ في مصر بعدا حضاريا حقيقيا اختلف عن توجهات وتجليات الفكر في بقية المناطق الإسلامية. هذا التأسيس لفكرتها في طبيعة الشخصية المصرية المتماسكة ذات البعد الروحي والميتافيزيقي الأصيل والتي تصهرها الوطنية فتتجاوز فروق الأديان والأعراف والتقاليد في تقليدها الخاص، فهذه حقيقة أنثروبولوجية وعلمية أظننا جميعا نتفق عليها.

ثم يأتي عدد من المشكلات، المشكلة الأولى مثلا ما اعترى الثقافة المصرية من ظواهر محزنة نتيجة لغزو الثقافة الصحراوية الآتية من الخليج ومن السعودية على وجه التحديد حيث لا توجد أية جذور للوعي الجمالي الفني الإبداعي الروحي بالحياة! فمصر بلد مبدعين كما أشارت الدكتورة هدى زكريا، فمثلا السلطان العثماني العظيم الفاتح سليم الأول عندما جاء إلى مصر وجد حضارة حقيقية يفتقدها في تركيا، فجمع كل كبار مهرة الصناع "المعلمين" في كل الفروع: النجارة، الحدادة، التنجيد، الخياطة، المعمار وكل وجوه الحرف وحشرهم حشرا في سفينة دون أهلهم لكي ينقل هذا الازدهار الحضاري والمهني إلى تركيا، للأسف معظمهم مات اكتئابا بعد شهور

قليلة لأهم انتزعوا من أسرهم ومن بيئاتهم ومن مجالاتهم الحيوية وقليلون هم من بقوا على قيد الحياة هناك وأشعلوا شيئا من النهضة في تركيا ازدهرت الآن بشكل واضح.

إذن، صراع الثقافات، الثقافة المصرية الأصيلة المستوعبة المتعددة الروحية المبدعة التي تجسد الفن والثقافة والإبداع وتجمع بين تناقضات الحياة، بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين شارع الهرم وحي الحسين كرموز للهو والجد، هذه هي الأصالة المصرية بين أعظم عدد من مقرئي القرآن الكريم وأكبر عدد من الراقصات! وفي حوار مع الدكتورة نعمات أحمد فؤاد لازلت أذكر أنها نبهتني إلى شيء بالغ الغرابة – في وقت نرى فيه معظم الشعوب الإسلامية تحفظ القرآن الكريم مثل مصر، ونتساءل لماذا تفننت الأصوات المصرية في تلاوة القرآن الكريم قبل أن تغزونا الأصوات السعودية الخنفاء ونعتبرها هي المثل الأعلى؟! وأنا ممن شبعت موسيقيا من صوت الشيخ محمد رفعت وارتويت وجدانيا بصوت الشيوخ عبد الباسط عبد الصمد ومصطفى إسماعيل بمقدار ما كنت أرتوي في الوقت نفسه بصوت شادية وأم كلثوم – وقد نبهتني الدكتورة نعمات أحمد فؤاد إلى شيء في غاية الخطورة، قالت لي هل تذكر أن موسيقى المعابد الفرعونية القديمة هي ذاتها التي وُظفت في الأديرة المسيحية وهي ذاتها التي يعتمد عليها مجودو القرآن الكريم في التلاوة؟ نفس السلم الموسيقي، ونفس الإبداعات الصوتية.

وبطبيعة الحال شعب يقف على هذه الكنوز، ويتكئ على هذه الثروة ويستطيع أن ينتج هؤلاء المقرئين أو غيرهم، بمعنى أن التراث الروحي والإبداعي والثقافي في النحت وفي التماثيل وفي الأصوات وفي التقاليد وفي الطقوس وفي اللهو وفي الأعراس وفي المآتم، هذه الخميرة الأصيلة في مجتمع من المجتمعات عندما تمتد في أعراقها طيلة هذه القرون فهي التي تنضج تلك الشخصية التي تبدو للنظرة السطحية متناقضة وغير مفهومة، فكيف يمكن أن ينتج هذا الشعب هذا العدد من قراء القرآن الكريم وزعماء الإخوان المسلمين ومفتي الجهاد، وفي الآن ذاته ينتج فيه هذا العدد من الفنانين والمبدعين والرسامين والراقصات والمغنيين إلى غير كل ذلك، هذه هي الخميرة التي تتفاعل فيها طبيعة الشخصية المصرية بمكوناتها غير المتناقضة في جوهرها.

المشكلة الثانية التي أثارتها الدكتورة هدى زكريا هي مشكلة الردة التي يعيشها المجتمع المصري في العقود الثلاثة الأخيرة فيما يتصل بالمرأة، فلابد أن نواجهها بشجاعة وبوضوح وبصراحة، كل امرأة بل وبالدرجة الأولى كل رجل يركز وعيه بشخصية الإنسان على جسده يهدر قيمته الإنسانية، يهدر ثقافته، يهدر عقله، يهدر شخصيته، إذا نظرت إلى المرأة مركزا على شعرها أتكشفه أم تغطيه فقد ألغيت ضميرها، وغفلت عن شخصيتها، وأسقطت من حسابك تكوينها العقلي وإرادتها الحرة وإمكاناتها الإبداعية وقدرتها الإدارية وأمومتها وبنوتها وكل قيمتها الإنسانية إذا حصرتها في مجرد جسد تقيس ما تعري أو تغطي منه! لسوء الحظ أن 90% من الموجة التي تشمل مجتمعنا الآن انحدرت إلى هذا المستوى في النظر إلى المرأة. وأنا لا أناقش المسألة من منظور ديني فلذلك مجاله، ولا أريد أن أثير مشاعركم فأنا ضد إثارة المشاعر، لكنني ألفت نظركم فقط إلى أن وضع المرأة المصرية قد تدهور ثقافيا وجماليا وفكريا منذ أن باغتتنا هذه الموجة الصحراوية التي تقصر قيمتها على ما تكشف أو تعرّى من

جسدها متناسين أن المرأة في نهاية الأمر كائن اجتماعي له كل حقوق الرجل فجرت طاقتها في العمل وفي الإبداع وفي الثقافة وأصبحت تمتلك ما يمتلكه الرجل من حرية منقوصة سياسيا وأصبحت منقوصة اجتماعيا بسبب ما خضعنا له من تقاليد صحراوية.

هشام (لم يذكر المتحدث باقي الاسم):

لقد اتسع صدر الدكتورة هدى زكريا للأعداء الذين هم الآخر، وقالت إن المصريين كانوا يتعاملون معهم بدون عنف وإنهم كانوا يكتفون بتجنبهم وببغضهم، أما عندما تحدثت عن الآخر المواطن في نفس البلد والذي له فكر مخالف فقد وصفته بالظلامية وبالجهل وبالمروق ووصفته بأقذع الأوصاف.

الشيء الثاني هو أننا لا نعتبر جميعا العثمانيين أعداءنا، فكثير منا يقتنع بأن العثمانيين هم أهل الخلافة الإسلامية وأننا كنا نطيعهم مثلما كنا نطيع غيرهم، وإذا كانت هذه هي الفكرة الموجودة لدينا فنحن إذن نتاج أحسن احتلال في التاريخ هو نتاج احتلال عمرو بن العاص لمصر.

الشيء الثالث هو أن الدكتور صلاح فضل قد أعطى المرأة الحق في أن تكشف شعرها والدكتورة هدى زكريا لم تعطِ لأي امرأة الحق في أن تغطي شعرها!

أحمد مصطفى (علوم سياسية واستشاري دراسات جدوى اقتصادية واجتماعية):

أحب أن أضيف تعليقًا على عدة نقاط ذكرت، أولا دائما هناك عاطفة تحكم تقييمنا للآخر، بدليل أننا نتعلم منهم وفي نفس الوقت نذكر أننا نبغضهم. ثانيا، أشارت الدكتورة هدى زكريا إلى ما نسميه حكومة التكنوقراط وهي أفضل حكومة والواقع يقول إن ذلك هو قبول الآخر بالفعل.

النقطة الثالثة أن فترة السبعينيات هي بالفعل أكثر الفترات التي سافر فيها المصريون إلى الخليج العربي وتأثروا بالفعل بالمذهب الوهابي ومبادئه وهذه الفترة أثرت سلبا بالفعل على المجتمع المصري.

النقطة الخاصة بمسيحيي مصر، فأنا أرى أنه إذا كان هناك مصريون مسلمون يرفضون أن يتناقشوا أو يتعاملوا مع مسيحيين، فالعكس أيضا صحيح، فمن الممكن مثلا أن أذهب للمدرسة الأمريكية لأحضر عرضًا في يوم جمعة لكنني لا أستطيع أن أحضر نفس العرض لدى الكنيسة القبطية، أو من الممكن أن أحضر في كنيسة كاثوليكية مثلا، فهناك نوع من الضغائن.

وأختلف فيما ذكر عن مسألة المرأة، فالمرأة المصرية من أكثر نساء العالم حصولا على حقوقها بدليل أنه بمجرد ما صدر قانون الخلع حصلت 2500 سيدة على هذا الحق في الخلع وهذه إحصائية من محاكم الإسكندرية.

أما بالنسبة للحقوق السياسية، فأنا كمواطن عادي لا أحصل على حقوقي السياسية لأنه للأسف حقوق الإنسان عندنا مهدرة، فإذا كنت أنا كشاب مصري لا أستطيع ممارسة هذه الحقوق، حتى مع الجمعيات التي لازالت تُحكم

بقانون عقيم منذ عام 1962، فإذا كان الشباب العادي لا يستطيع أن يمارس هذه الحقوق حتى عندما توضع معايير الكفاءة في الاعتبار، فكنت أرجو أن يتم التركيز على هذه النقاط.

يسري حافظ (مهندس):

بالنسبة للآخر وللرأي الآخر، يوجد ظاهر معلن ويوجد واقع ممارس، بالنسبة للظاهر المعلن نردد الحكمة المعروفة أن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، إلا أن الواقع الممارس لا يتم فيه ذلك، فنحن شعب وأمة لا تقبل إلا الرأي الواحد والفكر الواحد والأيديولوجية الواحدة، وهذا له جذور تاريخية، من تاريخ مكانة الأب في مجتمعنا، من تاريخ الحكومة في التعامل مع الشعب، وهكذا وجب على تاريخنا أن يختلف تماما وأن يعاد تشكيلنا منذ الصغر حتى نتفهم قبول الآخر، فمثلما يأتي الوقت الذي يقيِّم فيه الأستاذ الجامعي طالبه فوجب أن يأتي الوقت الذي يقيِّم فيه الطالب أستاذه الجامعي، لأنه ليس كل أستاذ جامعي يستطيع أن يحاضر في الجامعة.

كمال أبو الخير:

أشكر الدكتورة هدى زكريا على أنها وضعت أصابعها على أشياء كان التاريخ في مصر قد بدأ في طمسها، وأهم هذه الأشياء هو أننا نتشدق قائلين بأن لدينا تاريخ سبعة آلاف سنة حضارة، وهي قد أبرزت الاستعمار خلال سبعة آلاف سنة منذ الهكسوس وحتى إسرائيل بما يساوي حوالي ثلاث عشرة دولة استعمرتنا، فعبقرية الشعب المصري تتجلى في امتصاص هؤلاء المستعمرين مع استطاعة الحفاظ على شخصيتها المستقلة التي أعطت حضارات العالم أشياء كثيرة. لكننا لابد وأن نعترف بأن الاستعمار كان له دور كبير في تأخرنا، فلا نستطيع اليوم أن نقول أننا نسبق الغرب وخاصة أن الحضارة لها جانبان: جانب مادي وجانب ثقافي، فلا نستطيع اليوم أن نقول إننا متقدمين عن الغرب أو عن أوروبا أو عن أمريكا. فهناك أثر سلبي لهذا الاستعمار وهو ما وضعت الدكتورة هدى زكريا أصابعها عليه وأبرزته.

الشيء الثاني الذي أبرزته الدكتورة هدى زكريا هو الدين، فالشعب المصري استقبل غزوات واستقبل فتوحات واستقبل ديانات من أول إخناتون ومرورا بكل الديانات الأخرى واستطاع أن تكون سمته الرئيسية هي عدم التعصب، وعندما نرصد الصراعات الدينية في جميع أنحاء العالم نجدها حادة للغاية، أما في مصر فلا توجد أية صراعات دينية.

الشيء الثالث عن وضع المرأة في مصر، وأنا أختلف فيما يخص مكانتها، فتاريخيا يوضح أن الرئيس جمال عبد الناصر وأنا لست ناصريا أعطى حق الانتخاب للمرأة قبل أن تعطيه فرنسا للنساء فيها، وقد وصلت المرأة في مصر إلى مناصب وزيرة وسفيرة ومدير عام ووكيل وزارة ومدير مستشفى، فالمرأة في مصر ليست مظلومة على الإطلاق.

الشيء الرابع والخاص بأعضاء مجلس الشعب وفيما ألمحت إليه الدكتورة هدى زكريا مما إذا كان هؤلاء يمثلون مصر فعلا، فأريد أن أقول إنه منذ قيام ثورة يوليو 1952وحتى الآن لم تقف الديمقراطية بعد على قدميها، ولا نستطيع أن نقول إن كل من يفوز ويدخل مجلس الشعب فهو يمثل الشعب المصري!

محمد الجمل:

كنت أتمنى أن أتعرف من الدكتورة هدى زكريا على الــ"نحن" في مقابل الآخر في مفهوم أن تمثل الــ"نحن" المجتمع المصري العربي بكل مقوماته في مواجهة الآخر الذي تمثله الحضارة الغربية الحديثة والتي يجب أن نرصد طريقة تعاملها معنا اليوم.

محمد خليفة:

أختلف مع الدكتورة هدى زكريا في مسألة أن يتم وصف النساء بالشيطانات وبصاحبات الكيد مع نسبة هذه الأوصاف إلى المسميات الدينية، وبالطبع الدين بريء براءة تامة من ذلك ولا يخفى على أحد ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام في النساء من أنهن "قوارير" وغير ذلك من الأقوال التي تكرم المرأة، إلا أن الأقوال التي تقلل من شأنها ترجع حتما إلى عادات خاصة بفولكلور الشعب المصري.

الشيء الثاني أنها تحدثت عن التيارات الإسلامية الأصولية التي انتشرت في مصر إلا أن هناك نقطة تم إغفالها، وهو أن السلطة المصرية في السبعينيات هي التي استثمرت بعض هذه التيارات الدينية ووظفتها لطرد بعض الأيديولوجيات المعينة.

الشيء الثالث والذي أختلف فيه مع الدكتور صلاح فضل في أنه اختزل الحس الجمالي للقرآن الكريم وقُرائه في الجماليات ومقارنته بالفنانين وأنا أرى أن هناك اختلاف بين الاثنين.

محمد علي (جماعة تحوتي للدراسات المصرية):

فيما يتعلق بكلام الدكتورة هدى زكريا عن المرأة إن الأمر ليس متعلقا بحقوق المرأة والتي حصلت عليها من الدولة، وإنما متعلقة بوضعها الاجتماعي، ويجب ألا ندفن رأسنا في الرمال، فبالفعل، الوضع الاجتماعي الحالي للمرأة وضع مؤسف للغاية، لأنني أرى ذلك حتى في قريباتي ومنهن من حصلت على ليسانس الحقوق وثانية حصلت على بكالوريوس التجارة ناهيك عمن حصلن على بكالوريوس العلوم والهندسة، جميعهن يملن إلى العودة إلى البيت مع الاعتماد على إنفاق أزواجهن، وهذا جزء متخلف في ذهن الفتاة المصرية انغرس خلال وقت طويل للغاية، والسؤال هو ماذا نفعل حيال ذلك؟ وذلك لأن عودة المرأة إلى البيت تعني خسارة أكيدة للمجتمع في أحد عنصريه، فالمجتمع هو المرأة والرجل معا بغض النظر عن التفرقة البيولوجية بينهما، فهذان هما من ينشآن المجتمع وهما يكملان

بعضهما البعض وإذا فقد أحدهما قوته فسيصمد الآخر، فالأمر لا يحتاج إلى كثير من الكلام حتى نتبين أهمية أن يكون المجتمع مبني عليهما معا.

إذن، فوضع المرأة الاجتماعي في مصر محزن ومثير، والمجتمع المصري الآن يعيش حالة من انفصام الشخصية، فالمظاهر الثقافية التي أتت إلينا من دول الخليج ومن السعودية والتي غمرت المجتمع المصري أصبحت شيئا فظيعًا جدا، فأصبحت مظاهر التدين هي السائدة وليس جوهر الإسلام وصحيح الدين، انظروا إلى المصالح الحكومية في رمضان والتي يبدأ فيها العمل في العاشرة صباحا وينتهي في الواحدة والنصف، ومن حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف أو الثانية عشرة ظهرا تبدأ صلاة الظهر، فتتوقف المصالح كلها لمدة ساعة هي وقت صلاة الظهر ولو اعترضت فستجد من يتهمك بعدم التدين أو بغيره، وبعد انتهاء صلاة الظهر يكون اليوم قد انتهى والحجة هي أننا في شهر رمضان!

ولا أتحدث فقط عن شهر رمضان بل أتحدث عن سلوكيات الموظفين في كافة المصالح الحكومية وكافة الأعمال، فالصلاة تأتي أولا ولا يكملها على الجانب العملي أخلاق ولا ضمير، فنجد الموظف ينتهي من صلاته ثم يرتشي أو يسلك مسلكا مشينا لا يليق بهذا التدين الظاهر، وتجد التاجر يحج في حين تتسم تعاملاته المالية بشيء من الفساد، فنحن نعاني من حالة انفصام شخصية فعلية، وقد صدق الدكتور أيمن نور عندما قال في مجلس الشعب إن المصريين في حاجة إلى دراسة نفسية لحالتهم، فجميعنا في حالة نفسية سيئة ونريد لها حلا.

أود أيضا أن أضيف عن الآخر شيئا، فأنا أرى أن المصريين أنفسهم بينهم وبين بعضهم ليس عندهم آخر، وذلك على اختلاف مللهم ودياناتهم ومشاربهم، ولكن رأيي أنه لابد أن يكون الآخر محدد، فالآخر هو كل من هو خارج مصر، فأنا أتحدث عن الشخصية المصرية والهوية المصرية، وعندما أتعامل مع الآخر لابد أن أتعامل مع المصلحة المصرية. فليبيا بالنسبة لمصر آخر والسودان آخر، دول إفريقيا آخر والدول العربية آخر وأوروبا آخر وأمريكا آخر، وإسرائيل آخر، كل هؤلاء لا يؤخذون على أنهم آخر واحد، بل يجب التعامل مع كل منهم على حدة لأن موضوع المعاملة بالجملة لم يعد تنفع، فلابد أن أتعامل بالتفصيل مع كل آخر أفهم خصائصه وأفهم سماته حتى أستطيع التعامل معه.

صلاح فضل:

في الحقيقة، لقد تصورت – مثل كثيرين منكم – أن الدكتورة هدى زكريا ستتكلم عن الــ"نحن" قاصدة نحن أبناء الثقافة العربية الإسلامية من ناحية، والآخر هم الشعوب الأخرى التي نصطدم بها ونحتك ونتجاذب معها من ناحية أخرى، بينما كان هدفها في محاضرتها أن تحلل طبيعة المستويات الداخلية للشعب المصري في فتراته وفي موجاته وفي تقلباته المختلفة بالاختلاف العرقي حينا وبالاختلاف الديني حينا وبالاختلاف في العادات والتقاليد والجنس والنوع حينا آخر، وهذه كلها مسائل نسبية بمعنى أن المنظور الذي استخدمته الدكتورة هدى زكريا صحيح

علميا في علم الاجتماع، والمنظور الذي يدعو إليه الأستاذ محمد علي من أن كل المصريين كتلة واحدة وما عداهم هو الآخر وإذا تحدد المصطلح بهذا المعنى – يصبح المنطلق تحليليًّا صحيحًا، والمنظور الذي أفضله أنا شخصيا وتحدث عنه بعض الأخوة من اعتبار كل المجموعة العربية "نحن" لأننا جميعا في الهم شرق، فنحن من العالم الثالث نعاني من نفس المشكلات، ونحن عرب ومعظمنا مسلمون، ونحن أبناء ثقافة تبدو في اللحظة الحاضرة كأنها على شفا الصراع المستمر مع الثقافات والشعوب الأخرى، فاليوم مثلا وبخصوص المأساة التي حدثت في روسيا من احتجاز رهائن بمدرسة أطفال ومصرع المئات نتيجة لاقتحامها من قبل قوات الأمن، قد أحزنتنا كثيرا عندما عرفنا أن عشرة من المختطفين كانوا عربا أو مسلمين، وأعتقد أن الأمر ليس صدفة، ولا يمكن أن يعزى إلى نظرية المؤامرة فحسب أو أنها مكائد صهيونية وأن وجود العرب والمسلمين يشير إلى مشكلة التعصب الذي انطلق في ظروف تاريخية محددة واستغل في أفغانستان لمقاومة النفوذ الروسي وكان ذلك بداية تكوين جماعات الجهاد والقاعدة وغيرها لطرد روسيا من أفغانستان، ولازلنا نعاني من مشكلات استغلال الدين في التعصب الأيديولوجي العالمي، والغريب والطريف والذي تعرفونه كلكم هو أن الأمريكان لعبوا دورا رئيسيا في تمويل هذا، والنظام المصري أيام الرئيس السادات لعب دورا رئيسيا آخر في تفعيل ذلك، وتكون المشكلة الآن أننا أصبحنا كمسلمين متهمين بالإرهاب وبعداء الحضارة وبعداء الإنسانية، بالإضافة إلى عدد آخر من التهم، وتجد مع كل مرحلة من المراحل أحداثا دامية مؤلمة تعززها، بينما نحن لسنا كذلك. وهم أيضا عندما يقتلوننا في فلسطين وفي العراق نتهمهم لأن الدم يسيل أيضا، هذه المواجهات التي يصطك فيها الـــ"نحن" بالآخر هي دائرة أخرى للتحليل في علم الاجتماع.

عطيات الأبنودي (مخرجة سينمائية):

يبدو أننا لم ندرك تصنيف الدكتورة هدى زكريا لما قالته عن هموم المواطن المصري، وقد أعلنت أيضا عن ذلك، فقد خطر في بالنا أن الآخر هو غير العرب، فلم يقل أحد أن المحاضرة عنوانها الآخر هو غير العرب، ثم لماذا يبدو علينا الفزع لمحاولة رصد تفاصيل الحياة المصرية؟ لماذا نهرب لو كانت المسألة تخص المشكلات الحقيقية التي يعيش فيها المجتمع المصري؟ هذه المحاضرة قالت إن هذا المجتمع عندما يكون متماسكا وقويا يستطيع أن ينتج الكثير، وتعرضت لما يحدث عندما تتقطع أوصال هذا المجتمع، فعلينا ألا نهرب، أليس لمصر كيان مستقل يناقش مشكلاتها؟ هل من الضروري أن نكون داخل كيان آخر حتى نناقش المشكلات؟ الكل يهرب من مشكلات مصر؟ وأنا أحذركم من ذلك، فقد آن الأوان لكي ننظر داخل مجتمعاتنا، فلا يصح أنه كلما تحدثنا عن المشكلات نقول قضية العراق وقضية فلسطين وقضية العرب، وأين مشكلات المصريين من كل ذلك؟ وهذا هو كل ما أردت قوله لتصحيح مسار المناقشة.

صفاء زكي:

إن تطوير المرأة شيء هام جدا، لأنه إذا لم يحدث ذلك فسيكون لدينا أجيال مغيبة، فالمرأة هي الأم والتي تنشئ وتربي، فإذا لم نعط للمرأة دورها وحقها في التطوير والفكر فماذا ننتظر منها؟ وليس التطوير أن تعمل المرأة، فقد لا تعمل وتكون متطورة جدا ومثقفة، إذ يمكنها أن تقرأ وأن تحضر ندوات وأن تتعلم لغات وأن تثقف نفسها بنفسها، فالسؤال هنا هو كيف نشجع المرأة على أن تطور من نفسها بعيدا عن الجلوس أمام برامج الدش، بحيث يمضي كل عام وقد أضافت لنفسها جديدا، فلو شكلنا سيدات في مصر على هذه الطريقة، لكان ذلك ضمانا لتربية أجيال بارعة.

بعد ذلك، أسأل عن تنشئة أولادنا تنشئة ديمقراطية، هل التنشئة في بيوتنا المصرية من شأنها إخراج شباب يؤمن بالديمقراطية ويستطيع ممارستها أم لا؟

كمال غبريال:

أتفق مع ما قيل من أن الفكر الإرهابي الذي نعاني منه الآن هو نتاج بيئة صحراوية، وورد لنا مع ارتفاع أسعار النفط وهو فكر غريب عن البيئة الزراعية، فهذه المنظومة الفكرية وهذا التحليل يتفق مع المنطق وأنا شخصيا أؤمن به، إنما هناك مشكلة لا بد من أن ننتبه لها وهي أنه على الرغم من أن هذا تفكير بيئة بدوية تؤمن بالعنف والغزو، إنما لابد ألا ننسى أن المصريين أصبحوا – كما يقول الفنان عادل إمام – هم المخ وبقية العرب والسعوديين تحديدا هم العضلات! وأنا أتصور الآن أن أسامة بن لادن هو العضلات والخزينة وأن المخ هو أيمن الظواهري، وقد بدأت المسألة قبل حسن البنا ثم سيد قطب وبعده عبد السلام فرج ونهاية بعمر عبد الرحمن وأيمن الظواهري. إذن، كيف نرصد هذه الظواهر رصدا منطقيا وأن هذا الفكر نتاج بيئة رعوية وأن فكرنا نحن نتاج بيئة زراعية تختلف تماما ولا يمكن أن ينجب تاريخنا الحضاري مثل هذا الفكر المتطرف، وقد تولينا في يوم من الأيام زمام المبادرة الحضارية في المنطقة بأسرها وكنا دوما المخ والآخرون هم العضلات.

رجب عبد الفتاح (مهندس إلكترونيات):

في الحقيقة، أريد أن أذكر بإيجاز بعضًا من التجارب الشخصية التي مررت بها حتى أثبت شيئا للحاضرين، فالديمقراطية موجودة ولكن يجب أن تمارسها بحق بأن تكون مستوعبا لما تتحدث عنه، على سبيل المثال فقد زرت الولايات المتحدة الأمريكية قبل أحداث 11 سبتمبر، وقد رأيت كل الحب والتقدير والاحترام لي كمصري هناك، وقد زرت الكويت ثم زرت سلطنة عمان وخرجت إلى الحج البري من السلطنة عن طريق الإمارات وحتى السعودية، ففي كل مكان وفي كل منفذ أسمع من يقول لي بارك الله فيكم يا مصريين وبارك الله في الرئيس مبارك، وأنا أعمل في أفضل قطاعات الدولة وهو قطاع البترول وأستطيع أن أشعر بذلك أيضا من خلال عملي، وما أريد قوله هو أننا بخير، فإذا كان هناك بعض العيوب في المجتمع فإن كل شخص مسئول عن جزء من هذه العيوب.

وأحب أن أشير إلى جزء تحدثت عنه المنصة، وهي مسألة الديانة، وأنا لدي الكثير من الأصدقاء المسيحيين ولم أشعر قط بأي اختلاف بيني وبينهم، بل على العكس إن حرصي كمهندس إلكترونيات أن أضع يدي داخل الدوائر الإلكترونية أسلم – من وجهة نظري – من أن أصافح من أطلق لحيته ومشكوك في ذمته من هؤلاء الذين يسيئون للإسلام!

كذلك، أريد أن أتحدث عمن يتركون البلاد نتيجة ليأسهم من الأحوال المعيشية حيث لم يعد هناك صبر ولا مثابرة، وأنا أضم صوتي لما قيل حول اجتماع شمل الأسرة وحرص الآباء على أبنائهم بعيدا عن المادة وذلك لصالح بلادنا.

كذلك، أقول إنه لابد من أن نذكر عيوبنا وأن نفعل ما بوسعنا لبلادنا، فيمكننا أن نعطي الكثير، ونحن نرى الدول الأخرى التي بها كوارث وفيضانات تنتج أكثر مما ننتج، ونحن لا ننتج شيئا على الرغم من صفاء أجوائنا!

أيمن محمد علي:

لي بعض الملاحظات الخاصة بنظرة بعض المشايخ للمرأة، وأنا أحضر دروسًا في الجامع بانتظام، وهناك بعض المشايخ التي تنقل صحيح الدين فليسوا كلهم سيئين، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول "استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان" وقبل وفاته عليه الصلاة والسلام كان يوصي بالصلاة ثم بعدها يوصي بالنساء، وللرسول نفسه مواقف كان يستشير فيها زوجاته في بعض الأمور الهامة وكان يأخذ برأيهن.

وعن العلاقة بين المسلمين وأهل الأديان الأخرى، سواء من المسيحيين أو اليهود فأنا أرى أن كثرة الحديث في هذا الأمر تزيده تعقيدا، والحديث الشريف يقول :"من عادى ذميا فأنا خصيمه يوم القيامة"، وقد مدح الرسول عليه الصلاة والسلام في أهل مصر، فالمقصود ألا نركز الحديث على هذا الموضوع حتى لا نكون كمن ينفخ في النار.

أختلف مع الدكتور صلاح فضل فيما يخص التشبيه بين تلاوة القرآن الكريم وبين الأغاني، فنحن جميعا نستمع إلى الأغاني إلا أن للقرآن الكريم معزة خاصة عندنا جميعا.

صلاح فضل:

وللقرآن الكريم معزة خاصة جدا عندي أيضا.

أيمن محمد علي:

أحسست بذلك طبعا، لكنني أود أن أقول أن الإنسان هو الإنسان، وأن صوت الإنسان هو نفس صوته، وأنا لست دارسا للموسيقى لكن صوت الإنسان هو الذي يتكلم وهو الذي يغني وهو أيضا الذي يرتل القرآن الكريم إلى آخره.

كذلك، كنت أتمنى أن يوجهني عنوان الندوة لأن أتعامل مع الآخر المختلف عني تماما، مثلا كيف أتعامل مع إرهابي؟ كيف أفهمه أو أتفاهم معه، فهذا ما كنت أود أن أعرفه اليوم.

محمد عبد الحميد:

أول ما ذكرت الدكتورة هدى زكريا كان عن صلاح الدين الأيوبي ومدى استيعابه لتجنيد المسيحيين في صفوف جيوشه وهو يحارب الصليبيين، ويرجع هذا حتما إلى فهم الدين، فالسؤال الأول هو كيف يتم تقديم الدين في المراحل الدراسية المختلفة بحيث نعد الطفل على استيعاب الخطأ والصواب مما يسهم إيجابيا في نشأته؟

بالنسبة لموضوع النساء، وقد ذكرت الدكتورة هدى زكريا موضوع النساء والخطباء الذين يسفهون من ذكر النساء وعن الخلع وعن الزواج العرفي، وهذه النقاط توضح لنا كيفية فهم شخصية النساء، ويكفي أن أقول لكم إنه في نهاية مذكرات مارلين مونرو قالت قبل أن تنتحر وأرجو أن تقرأ النساء هذه الجملة قبل أن يكابرن، قالت:" كنت أتمنى أن أكون زوجة لفلاح بسيط في كوخ في البراري أنتظره عند مجيئه أقدم له الماء الساخن وأغسل قدميــــه وأنجب منه طفلا وأفني حياتي في خدمته"، وقد ذكر الحديث الشريف ما معناه :"لو كنت آمرا لأحد أن يسجد لأحد غير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها"، ويقول القرآن الكريم: "وقرن في بيوتكن".

محمد علي الشاذلي:

من مفهوم الـــ"نحن" في مقابل مفهوم الآخر، نحن في مواجهة حرب الإرهاب على الإرهاب، ومواجهة التحديات للحريات وحقوق الإنسان تحت مظلة الشرعية الدولية والأمم المتحدة، اختلط الحابل بالنابل وتحول مفهوم المقاومة الشرعية مثل مقاومة الاحتلال للشعب الفلسطيني والعراق وغيره من الشعوب التي ترضخ تحت نير الاحتلال والتي تطالب بالاستقلال وبالحياة وبالحرية، وحينما يتغير مفهوم المقاومة الشرعية إلى إرهاب وإلى مسمى آخر يعني تبادل العنف، فالقضية هنا ليست صراعًا فلسطيني- فلسطيني ولكنها قضية شعب يعاني من الاحتلال والقهر والظلم داخل أرضه المغتصبة، ومن الذي يدافع عن حقه المشروع ومن هو صاحب الحق الشرعي وكيف نتعامل مع مفهوم الآخر من هذا المنطلق؟

محمد صالح:

ابتعدت مناقشات المنصة عن الدين، وتم فصل الفكر والثقافة عن الدين، ثم تحدثت المنصة عن الحجاب، والحجاب فرض بنص قرآني، وهذا معروف للجميع.

محمود الشريف (مهندس):

ذكرت الدكتورة هدى زكريا لفظ "السلفيين"، وهذا اللفظ أطلقه المثقفون الذين يتعاطون الثقافة الغربية ويتصورون أن السلفيين هم المتطرفين، في حين أن السلفيين هم من يدعون إلى عدم اتباع البدع فقط.

كما ذكر الدكتور صلاح فضل مسألة الحجاب حيث إنه يرى أنني عندما أنصح امرأة بأن تغطي شعرها فأنا بهذه الطريقة أهدر ثقافتها وعقلها، في حين أنه اعتبر الراقصات ضمن إطار الثقافة، أليس هذا تناقضا؟

ماركوس عياد:

أؤيد رأي الأستاذة عطيات الأبنودي في أننا نسينا كلمة "نحن" كمصريين وأصبحنا نركز على "نحن كعرب، فبالتالي نسينا مشاكلنا وهمومنا.

كذلك، أتفق مع الرأي القائل بأن بذرة السلفية نشأت في مصر، ومنذ ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، فهي ليست شيئا مستوردا، وأعتقد أن السبب فيها هو الحكم الشمولي أو الحكم المركزي، فقد أراد الملك فاروق مناصرة الإخوان حتى يواجه بهم حزب الوفد، وقام الرئيس السادات بتكوينهم مرة أخرى حتى يناصروه ضد الشيوعية.

كذلك، نحن نتحدث عن الضمير "نحن" بعنصرية، فنتحدث عن نحن كعرب أو كمسلمين ولا نقول نحن كإنسانية، فمثلا يركز الإعلام على مشكلات فلسطين والعراق ولا يركز على مشكلات رواندا والكونغو والسودان على الرغم من المجازر البشعة التي تحدث هناك، فقيادات الإعلام عندنا لها أيديولوجية معينة تنفذ سياسات الدولة، ويرفضون الحوار مع الآخر، وكل من يحب التفاوض أو الحوار مع إسرائيل يتهمه الإعلام اتهامات باطلة، عندما تسافر مجموعة مثل التي سافرت إلى كوبنهاجن لكي تتحاور مع اليهود أطلقوا عليها "مجموعة كوبنهاجن" وتعرضت لهجوم، كما أن في إعلامنا يرفض الإذاعات الأجنبية مثل إذاعة "سوا" أو قناة "الحرة" والتي يعتبرونها تلعب بعقول العرب على الرغم من أنها قناة اتصال بيننا وبين الآخر.

هديل (طالبة في كلية الصيدلة بجامعة الإسكندرية – لم تذكر المتحدثة باقي الاسم):

لي تعليقان، التعليق الأول هو أن المسألة قد تكون مسألة علم وجهل، فمثلا المتشدد قد لا يقصد أن يكون متشددا لكنه جاهل بدينه، وعندما ترتدي إحداهن زيا معينا فهي لا ترتديه – في أغلب الأحيان – عن معرفة وعلم وإنما لأن أحدهم قال لها أن ترتديه فنفذت دون تفكير!

التعليق الثاني هو عن اهتمامنا بالقضايا الخاصة في مصر، ففي بداية القرن الماضي عندما رفعت المرأة الحجاب، اهتمت أوساط ثقافية كثيرة وقتها بهذا الموضوع، أما الآن فعندما وضعته المرأة لم يهتم أحد وتاهت القضية وسط قضايا أخرى كثيرة.

فاروق حبروك (مهندس استشاري):

الإنسان عدو ما يجهله، وأنا أعتقد أن كل من هو آخر هو كل من له أطماع وأغراض وتتعارض مصالحه مع مصالحي، فهذا هو تعريف الآخر، ولنا في تجربة أوروبا الموحدة مثال عظيم لتجربة عظيمة في تآلف الشعوب مع بعضها البعض على الرغم من أن كل منهم بالنسبة لغيره هو "آخر"، ولا ننسى تاريخ حروب فرنسا وألمانيا والنمسا وغيرهم، وآخر حروبهم كانت الحرب العالمية الثانية والتي قتل فيها 25 مليون جنديا و10 مليون مدنيا ومدن بالكامل انتهت، كل هؤلاء كانوا آخرين بالنسبة لبعضهم البعض، لغات مختلفة، طوائف مختلفة، لكن عندما اتحدت مصالحهم، والتقت عقلياتهم واتحدت فقد ذابت جنسياتهم وصاروا جميعا تحت لواء واحد.

ولنا هنا في مصر تجربة قبول الآخر مع المثل الذي بدأت به الدكتورة هدى زكريا محاضرتها، حيث جاء اليونانيون منذ 200 سنة إلى مصر مع محمد علي باشا الألباني الذي أتى من قولة وهي مدينة في اليونان، جاء اليونانيون إلى مصر بحثا عن لقمة العيش في بلادنا، وقبلتهم مصر وأحبتهم لأنهم طوروا فيها زراعة القمح وزراعة الكروم واستصلحوا الأراضي البور ونستطيع أن نتبين ذلك على الطبيعة، أما أبناء جلدتنا من البدو والعرب والذين اصطدمت بهم أنا شخصيا وأنا أشق طريقي عبر الطريق الدولي السريع في الساحل الشمالي، فقد وجدت منهم عداوات شرسة وذلك لأن مصالحهم قد تتعارض مع مصلحتي، وسبب عدم فهم أن تعمير الساحل الشمالي جزء من خدمة الوطن.

قاسم (لم يذكر المتحدث باقي الاسم):

لقد حصرت الدكتورة هدى زكريا تقييم الآخر فينا كمصريين، هل خلال الخمسين سنة الماضية قمنا بتدعيم الـــ"**نحن**" أمام الآخر أم فرقنا الـــ"**نحن**" أمام الآخر؟ بمعنى ما هي القوانين الاشتراكية؟ قانون المالك أمام قانون المستأجر، لقد خلقنا من المصريين أعداء لبعضهم البعض بحيث أصبح لكل من المصريين مصلحته في اتجاه الآخر، فهل هذه سياسة؟

كذلك هناك شيء آخر، فعندما جاءت الحملات الصليبية، وقبل أن تأتي إلى مصر عندما نزلت بيزنطة وقتلت المسيحيين هناك، وفي مذكرات سافاري قبل الحملة الفرنسية ماذا قال عن مسيحيي مصر قبل الحملة الفرنسية، إذن نحن نعلم تماما أنه كان هناك اتجاه تبشيري داخل مسيحيي مصر بالمسيحية الغربية والكنيسة المصرية بعظمتها كانت تتمسك بأصول المسيحية وهي تعلم أن هناك اتجاهات تبشيرية، وليست المسيحية كلها وإنما بعض اتجاهات فيها ونحن نعتز بالمسيحي مثل المسلم.

ماجدة عبد الراضي (شاعرة وأمينة المرأة بجمعية نبع العطاء):

أريد أن أتحدث عن موضوع المرأة، فقد تم عمل حصر في المحاكم المصرية بأن هناك 2500 سيدة مصرية خلعن أزواجهن، فما هي الأسباب التي خلعن بسببها؟ فحتى الآن تعاني المرأة من الضرب والإهانة ولا تأخذ كل حقوقها، وهناك مجلس قومي للمرأة في الإسكندرية ولا يفعل شيئا، وأنا شخصيا أحتك بأوساط كثيرة ولا أجد منهم يستطيع أن يتعامل مع المرأة أو يحل مشكلاتها، فحتى الآن لا تعرف كيف تأخذ المرأة حقوقها، فلا توجد بدائل أمامها، وهناك سيدات مثلا لهن على أزواجهن نفقة للأولاد ويرفض الزوج إعطاءها فماذا تفعل هذه السيدة ومن أين ستنفق على أولادها؟

صلاح فضل:

بعد عشرات من التعليقات والأسئلة نجد أنه لا يمكن للدكتورة هدى زكريا أن ترد عليها واحدة واحدة، وإنما سنطلب منها أن تفسر بعض ما أحتاج إلى توضيح وتفسير، ثم سأعقب بعدها موضحا بعض الالتباسات التي قد تكون نتجت عن كلماتي لدى بعض الأخوة.

هدى زكريا:

في الواقع، أنا لم أفاجأ بالتعليقات، لا التعليقات المؤيدة ولا التعليقات المعارضة، لكن هناك ما أحب أن ألفت النظر إليه من منطلق فكري، ففي العادة عندما نذهب إلى محاضرة ننظر إلى العنوان ونتوقع أشياء، وأنا أظن أن عددا كبـــيرا لم يستمع إلى المحاضرة نهائيا مع أنني قرأتها حتى يكون لدي دائما فرصة للعودة إلى الأصل الذي قلته، وعندما قرأتها فعلت ذلك تفصيلا واستخدمت تعبيـــرات لم يسمعها أحد لأننا أتينا لنتحدث لا لنسمع! مثلا استخدمت تعبير الخطاب الديني وتعبير خطبة المسجد ولم أستخدم تعبـــير الدين، ومع ذلك عاقبني البعض كما لو أنني هاجمت صحيح الدين نفسه، وهناك فرق بين الشريعة وبين الفقه وهذا كلام يعرفه جيدا المهتمون بأمر الدين،

وهناك أحد عشر أصلا للشريعة، ومع ذلك فإن من حدثوني يجهلون هذه الأصول كلها ولا ينظرون إلا من ثقب الإبرة هذا الذي ينحسر في خطبة خطيب في مسجد وصار الذين يستمعون إلى الخطب أفضل وأكثر علما بالثقافة الإسلامية! فالحقيقة أنه حدث تدهور في الثقافة الإسلامية خاصة عندما نحلل لغة الخطاب الديني، وعندما أقول لغة الخطاب الديني فلا يحاسبني أحد على أنني أتحدث عن الدين لا الإسلامي ولا المسيحي، فأنا أتحدث عن لغة الخطاب، وهي تختلف من عصر إلى عصر ومن تاريخ إلى تاريخ، ألم يقتل الخليفة المنصور الإمام ابن حنبل شخصيا بصفته كافرا! أتأتون اليوم وتسألونني عن هذا الذي أقوله؟ فأرجو أن نعيد النظر في المسائل كلها وأن نعيد النظر في حجم ثقافتنا ونحن نتحدث عن الدين.

كذلك، هناك شيء هام أحب أن أقوله، فأنا أقوم بتدريس علم الاجتماع في جامعة الزقازيق وأنا بنت جامعة القاهرة حتى الدكتوراه، وأظن أنه على العالم أو الباحث مسئولية عندما يتعرض وطنه لأزمة حقيقية في تفكيك الضمير الجمعي لهذا الوطن، وكل مجتمع في الدنيا هدفه الاستمرار أو البقاء، فلا يوجد مجتمع يهدف إلى الانقراض، أما مصر فلم يكن هدفها فقط هو الاستمرار والبقاء، وإنما الخلود، وحتى تصل إلى هذا الخلود، شكلت أعلى ضمير جمعي رجعت إليه كل الثقافات، وعندما أقول الضمير الجمعي لا أقصد الدين، لأن الدين هو أحد وأهم مكونات الضمير، لكنه لا يُكوِّن الضمير الجمعي بصفته المفردة، والضمير الجمعي تكون عبر تاريخ طويل استعرضته و لم يناقشني فيه أحد، فقد كنت أظن أنني سأطور هذه الورقة إلى كتاب بفعل مناقشاتكم، ولذلك سأضطر إلى مناقشتها مع آخرين لأن كلا من الحاضرين جاء يبحث عما في نفسه داخل هذه الورقة، وأنا لم أستطع الإجابة عما في نفس الجميع، وإلا لصارت هذه الورقة لا شيء، فهذه الورقة تتحدث عن موضوع محدد ودفعني إليه نزعة وطنية في نفس باحث يود أن يستنهض في وطنه مناطق القوة.

نحن نتفكك في ضميرنا الجمعي ونتفكك في ثقافتنا، وعناصر القوة في هذه الثقافة هي التي رحت أبحث عنها في قلب التاريخ وأنا أحذر من عناصر التفكيك والضعف، ولذا تحدثت عن فكرة المركزية البنائية وعن فكرة التفكك ومن أين أتت القوة ومن أين نذهب إلى الضعف، فاستنهاض عناصر القوة كان هدف هذه الندوة.

هناك جانب علمي منهجي، وأريد أن أنبه إليه الجميع لأن هذا أيضا واجبي، وهي فكرة التجزيء الفكري، فقد استمعت إلى أفراد من حضراتكم هم جديرون بالانتباه إلى حديثهم ومن بينهم المهندس والدكتور، لكن عندما تحدثوا عن الدكتور صلاح فضل أصابني الذعر! لأنه لم يقصد قط و لم يأتيني منه أبدا أي انطباع ولا أي التباس من أن ثقافتنا تحتمل التناقض وهي ثقافة غنية للغاية وقد ذكرنا بأشياء قوية وعظيمة، لكن البعض أساء فهمه نتيـــجة التربية على التجزيء الفكري، فنحن ننظر إلى جزء من الصورة ثم نحكم على بقية الصورة، ويدفعني ذلك إلى أن أقوم بعمل دراسة حول كيف يفكر المصريون عندما يقرأون كلمة واحدة، إذ يفسرها الجميع تفسيرات متباينة في حين لا يعلن التفسير الوحيد الحقيقي ولا يقال، فأثار ذلك ذعري، ألا يكفي أننا نتفتت ثقافيا،

نحن ممزقون فكريا ومهددون ثقافيا، ويبدو لي أن البعض ينظر من منطقة ضيقة للغاية، في حين أنه ينظر إلى الدنيا من خلال وجوده داخل كهف فكري، وأنا أدعو الجميع للخروج من هذا الكهف الذي دخله الجميع باختيارهم.

وحول ما قلته عن المرأة، وهاجمني البعض قائلا إنني أهاجم الدين الإسلامي في حديثي، والحقيقة أن الإسلام هو الذي رفع من شأن المرأة في حين أن الخطاب الديني هو الذي يحط من شأنها، ويفعل ذلك عن طريق الفقهاء، وقد قمت بتحليل مضمون كلمات صدرت من أساتذة في الأزهر عندما يفسرون أنه ليس للمرأة على زوجها إلا المأكل والمسكن والملبس، ويفسرون المأكل ويفسرون المسكن ويفسرون الملبس على أنه بدلة واحدة إلى أن تذوب! والمسكن حيث يسكن هو! أما المأكل فما يقدمه لها ما عدا التفاح ولو كان دواء لمرضها! هذا الكلام يقال في مصر ويصدر من أساتذة في الأزهر وفي كتاب بعنوان "المجتهد في دراسة أحكام الأسر"، وقد أصبت بالذعر من مضمون هذا الكتاب المطبوع والذي يقول عن المرأة "وليس لها مكحلة ولا مشط ولا أن تذهب إلى الحمامات العامة"!، وقد تكون المكحلة أو المشط في الأزمنة القديمة مصنوعة من الذهب أو الفضة، فلا يمكن أن نقارن ذلك بالمشط الذي يباع اليوم مع الباعة الجائلين في المواصلات العامة بما لا يزيد عن خمسة وعشرين قرشا! ولو أننا انعزلنا هكذا وصارت هذه الطريقة هي التي نفسر بها الأمور، فسأذكركم بموقف الملك فيصل العظيم عندما ذهب إليه الوهابيون ليقولوا له "البدعة .. البدعة" فقال لهم لديكم كل الحق وتنفيذا لكلامكم، عودوا لاستخدام الجمال فقد أخذنا سياراتكم واحتجزناها لأن السيارة بدعة وابتكار!

وأحب أن أضيف بأن علم الاجتماع بوجه عام وكأنه يقاس بالمسطرة، فقد بدأ ابن خلدون مؤرخا وانتهى إلى تأسيس علم الاجتماع وذلك لأن الحادثة التاريخية التي حاول ابن خلدون التأكد من صدقها لم يكن ممكنا التأكد منها إلا بمسطرة أو بمازورة علمية، فابتكر ما يسمى بعلم العمران البشري الذي أصبح علم الاجتماع، وأنا الآن لجأت للتاريخ مع إنني متخصصة في علم الاجتماع لأن التاريخ هو الذاكرة الاجتماعية ولذلك فأنا أشعر بالذعر، أنا لا أخشى الآخر الذي يضربنا بعساكر أو بطائرات، إنما أخشى من يضرب الذاكرة، ومن يضرب الوعي، لأننا سندفع الفاتورة كاملة. وفي لحظة من اللحظات، قام أبناؤنا من الجماعات التي أطلقت على نفسها لقب إسلامية بتأديب أمهاتهم وآبائهم بدعوى أنهم كفرة، خارجين بذلك تماما عن البنية الاجتماعية.

وقد نبهني ذلك إلى ظاهرة تحدث في مصر، عندما تبدأ الأمور سياسية وتنتهي اجتماعية ثقافية، فعندما جلس الرئيس السادات على مائدة المفاوضات مع إسرائيل – وهذا لا يعيبه بالمناسبة فقد جلس أعدى الأعداء في جميع أنحاء الدنيا على موائد المفاوضات مثل لينين والروس البيض وفي الحرب العالمية الثانية عندما جلست الدول لعمل تصفيات سياسية – لكنه وأثناء هذه الجلسة بدأت عملية في السبعينيات نرى من نتائجها ما نتحدث عنه الآن، فقد مد الرئيس السادات يده وحتى تتم التسوية ليقوم بفك أول صمولة في ضمير الجماعة المصرية، فقد كان

ضمير الجماعة المصرية العربية يتم ربطه بقوة فنشعر أن الكل في واحد وأن القضية في الدين والوطن واحدة، بدأ يفك بهدوء عندما قال دولة العلم والإيمان وعندما فتح الباب لفريق معين بحجة خلق توازن فاختل التوازن، وعندما يختل التوازن في الجسم يحدث سرطان، فحدث سرطان حقيقي، فقد ربى الرئيس السادات ذئبا في أحضانه فنهشه الذئب في النهاية وقدمه كنموذج لمن بدأوا فك الضمير الجمعي المصري.

وعندما يتم فك ضمير جماعة فهذه جريمة تاريخية، لكن عندما يحدث ذلك تظهر مختلف ألوان الجماعات كل منهم يريد لملمة هذا الضمير لحسابه الخاص، فتأتي الجماعات الإسلامية تعيد تكوين الضمير الجمعي لكن على أرضية تقول لنا مدعية إنها دينية، وتأتي جماعة أخرى تحاول جذب الأمر تجاهها وفق مصالحها فتظهر المزايدة. إذن، فضميرنا مطروح لكل من هب ودب وذلك لأن عوامل التفكك دخلت فيه، وفي محاولات تجميع الضمير، أدعي أنا أيضا حتى لو كذبتموني أنني أسعى – وقبل أن أقضي نحبي – إلى أن أسهم في تجميع هذا الضمير الجمعي بأدواتي المنهجية، ألم تربينا هذه البلد عندما شرع الرئيس جمال عبد الناصر مجانية التعليم؟ وأنا هنا لست امرأة ولست رجلا وإنما أنا تعبير عن هذا الضمير، ففي لحظة من اللحظات ظهر سقراط في اليونان ليس كرجل ولكن كحاجة اجتماعية فكرية لحل مشكلة السفسطة والسوفسطائيين، في هذه اللحظات تحتاج بلادنا إلى أن يظهر مثقفون مثل الدكتور صلاح فضل ليندهش ويفاجأ ويلفت نظرنا إلى جمالنا، فعندما ذكر أعذب الأصوات التي رتلت القرآن وأعذب الأصوات في الغناء كان يقصد إبراز جمالياتنا الثقافية و لم يتحدث قط عن قلب القرآن، وعندما بدأت أنا بالمثل القائل "من حبنا حبيناه" قصدت بالفعل أن كل من يحب هذه الجماعة المصرية فسنحبه وسيصير متاعنا متاعه وكل من سيكرهنا سنكرهه، لكن الخطر هو أن نستشعر فحيح وألفاظ الكراهية في قلب مواطنينا وهم يتحدثون إلينا.

وفي الختام أحب أن أقول لكم مثلا أخيرا قاله أبو زيد الهلالي وهو : "من قلة المحَنَّة وقعنا على الجفا فخدنا من دار العدو حبيب"، أرأيتم أكثر من ذلك؟ عندما نقع في هذه الهوة ويقل حنان الحياة فينا تجف مشاعرنا ونتخذ من عدونا حبيبا لنا.

صلاح فضل:

شكرا جزيلا لهذه الدعوة الصادقة والحارة والمخلصة والعلمية للدكتورة هدى زكريا، وكنت قد أضمرت أن أتحدث قليلا لكنها أغنتني عن التعليق، وسوف أكتفي بتعليقين، التعليق الأول بالنسبة للإخوة المتحدثين الذي أشاروا إلى أننا في مصر نتميز بطبائع معينة استبدادية في التربية وفي الثقافة وأننا كذلك منذ قديم العصور ولا أمل في تغييرنا، وأقول إن كل الثقافات بدأت بهذا الطابع، وكل الشعوب مرت بهذه الخواص، ونحن أقدر من غيرنا على التطور والتقدم، وإذا كنا قد عبدنا الفرد في الماضي القديم فإننا قد عبدنا الله سبحانه وتعالى وتخلصنا من عبادة الأفراد، ونحن أكثر الشعوب تهيئة وكفاءة لأن نكون عصريين ومتقدمين وديمقراطيين في الأسرة وفي المجتمع، هذا

يقيني الحقيقي لأن التاريخ لا يحجب إمكانية التطور، بل إن خصوبة التجربة التاريخية تساعد على هذا الإيقاع السريع في التطور.

التعليق الثاني يتصل بما فهمه البعض منكم من أنني أهاجم شيئا جوهريا في الدين، ربما لا تعرفون أن ثقافتي الأساسية دينية وأنني قرأت القرآن الكريم عشرين سنة من عمري بين قراءته وتفسيره، وأعرف غاياته بقدر ما يتاح لمثقف أن يتعرف عليه وبقدر كبير من التواضع، والأخوة من الشباب الذين أغبطهم وأسعد بحماسهم ونبرقم الدينية لم يفهموا طبيعة ما أقول، لأنني في حقيقة الأمر لا يمكن ولا الدكتورة هدى زكريا أن نهاجم الفهم العلمي الصحيح للدين الإسلامي وقواعده الجوهرية، كل ما يمكن أن نتحدث عنه أننا نخلع عيوبنا بجهل كبير، والمشكلة التي نعانيها هي في الخطاب الديني كما تفضلت الدكتورة هدى زكريا، وفي عدم التخصص، ليت من يفتي لدينا في الدين يكون متخصصا، أما الحماس العاطفي والحماس الوجداني فهذا شيء جميل نشترك فيه جميعا، ولابد أن نفهم أنه من آداب الحوار ألا يتهم أحدنا الآخر، ولعل هذه هي الجدوى الحقيقية من منتدى الحوار، حتى نتعلم كيف نسمع ونتأمل ونحسن الظن بما يقال ولا نسيء الظن به، فقد سمعت بعض الأخوة يقول المنصة عليها علمانيون وكأنهم كفرة، مفهوم العلمانية ليس هو الكافر على الإطلاق، بل إن العلماني بالمفهوم الإنساني والعالمي هو الذي يفصل الدين عن السياسة، وكبار الفقهاء المجتهدين في الدين يرون أنه عندما يُستغل الدين سياسيا يخرج عن حقيقته الجوهرية كهداية من الله سبحانه وتعالى لكل البشر، وأتمنى أن تقام ندوة في منتدى الحوار حول مفهوم العلمانية وعلاقتها بالدين وذلك لطرح كل المفاهيم وتوضيح ما يصدر عن العلماء وما يصدر عن غيرهم من العوام.